حدود الكاتب وحدود القارئ

د.أمير تاج السر - الدوحة

كاتب وروائي

كنت أفضل لو ظلت الحدود بين الكاتب وقرائه كما كانت في السابق، الكاتب في عزلته ينجز ما يستطيع إنجازه، والقارئ في قراءته يختار ما يعجبه ويترك ما لا يعجبه، وتمضي سكة الكتابة بلا تدخل من طرف في رأي طرف آخر.

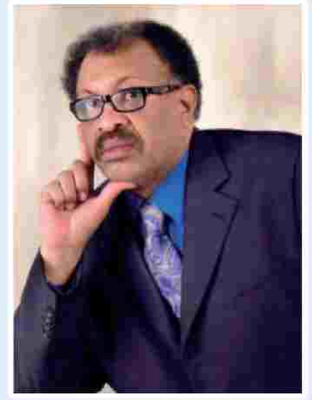

حتى عهد ليس بعيدا تماما، وقبل أن تتمدد تكنولوجيا الاتصالات الحديثة في حياتنا ويصبح كل شيء ممكنا، كان الكاتب ينفرد بنصه في عزلة تامة، يكتبه بطريقة ترضيه سواء كانت جيدة أو رديئة، وينشره بعد ذلك، وغالبا لا يسمع عن تداعياته الكثير.

ربما يكتب ناقد مقالا في جريدة، ربما يلتقي الكاتب ببعض الذين قرؤوا النص في ندوة أو احتفالية عامة يشارك فيها، ويسأل فيها عدة أسئلة يجيب عليها بما يراه مناسبا، وتوجد ما تسمى بالشهادة الإبداعية، التي يكتبها الكاتب عن إبداعه وتجربته ورؤيته للحياة وشخوصه المبعثرين في الروايات، وينشرها أيضا إن ارتأى ذلك.

حتى الترويج للكتب كان مختصرا أيضا، وأذكر في نهاية الثمانينيات من القرن الماضي -عندما كنت في مصر- أنني كنت أسمع أخبار الإصدارات الجديدة وأنا جالس في المقاهي، كان كل من يقرأ كتابا يعجبه يأتي ليروّج له بحماس، ولا شك أن تلك الفترة كانت من أخصب فترات القراءة عموما لدى الناس.

كانت الحياة سلسة بعض الشيء، لا تعقيد في اكتساب الرزق اليومي، ولا أي عقبة تقف في طريق التلقي المعرفي، وكان الكتاب -في رأيي- هو وسيلة الترفيه، ليست الوحيدة، ولكنها الأكثر جذبا، خاصة لدى المثقفين. وبهذه الطريقة عرفنا كتّابا عظاما وآخرين عاديين، وقرأنا لهم وروجنا لكتابتهم بطريقتنا.

وعندما صدرت ترجمة عربية لرواية "العطر- قصة قاتل" للألماني باتريك زوسكيند، في تسعينيات القرن الماضي -تلك الرواية التي دخلت تاريخ القراءة بجدارة وترجمت لكل اللغات المعروفة كما أعتقد وبيع منها ملايين النسخ- لم يبق مثقف جالس على مقهى إلا وتحدث عنها بانبهار، وكانت فرصة عظيمة لاقتنائها، ومتابعة ذلك الكاتب العظيم في رواية "الحمامة" التي ترجمت له بعد ذلك.

أيضا كانت الملاحق الثقافية في الصحف اليومية ذات دور كبير في الترويج، حيث كانت أكثر ثراء وعمقا، وغالبا ما تعثر داخلها بجانب الأخبار الثقافية على من يضيء لك نصا لأحد الكتاب. ولا أنسى دور السلاسل الأدبية الرخيصة الثمن التي كانت تصدر هنا وهناك، ويمكن اقتناء عشر إصدارات منها بسعر كتاب واحد، صدر عن دار نشر خاصة.

إذن كانت حدود الكاتب تتوقف عند هذا الحد، والكاتب المنشغل بإبداعه لا يعرف في الغالب ماذا كتب عنه، وماذا قيل عن نصه المنشور -كما ذكرت- إلا بتلك المصادفات البحتة. وكذا تنتهي حدود القارئ الذي لن يعرف عن الكاتب أكثر من كونه كاتبا يجلس في عزلة في مكان ما، ويكتب نصوصه بلا أي ضجيج.

الآن اختلف الوضع كما نعرف، اختلف كثيرا. ومع انفتاح قنوات كثيرة للترويج عن سلعة الكتاب بدأنا نجد كتّابا كبارا -حتى من أجيال فاجأتهم تكنولوجيا الاتصالات، وهم قد تجاوزوا مرحلة تلقي المعرفة الجديدة ليقتحموا تلك التكنولوجيا- أصبحوا يشاركون بأنفسهم في صياغة أخبارهم ونشرها هنا وهناك، أو يضعون أغلفة كتبهم وما قيل عنها في صفحات خاصة، أو على صفحات عادية، ينشئونها في مواقع التواصل الاجتماعي المنتشرة بشدة في الإنترنت، وكثيرا ما يظهرون في القنوات الفضائية، التي أصبحت هي الأخرى بلا عدد، ولدرجة أستغرب فيها من يستطيع أن يتابع كل ذلك؟

هذا وسع من حدود الكاتب بلا شك، وأكسبه أراض جديدة يتجول فيها، لكن ماذا عن حدود القارئ، وتشابكها مع حدود الكاتب؟

لقد ذكرت مرة في شهادة لي عن الكتابة، أنه صار بإمكان كاتب خواطر بدائية، في قرية بلا اسم في أي مكان في الدنيا، أن يرسل طلب إضافة لأمبرتو إيكو أو باولو كويلهو، أو أي كاتب شهير آخر، على أي موقع تواصلي يوجد فيه.

وإن استجاب الكاتب للطلب، تدخل علاقة التلقي مرحلة جديدة، يشارك فيها القارئ بآرائه مباشرة من دون خوف، ويمكن أن يغرق الكاتب في مشاكل بلا حصر، كأن يورطه في محاولاته الشخصية، ويطلب رأيه فيها بإلحاح، أو كأن ينتقد نصا له بلا دراية، وهكذا.

لقد شاهدت كثيرا عبر شبكة الإنترنت -المفتوحة لكل شيء- قراء يبدون آراء شديدة السلبية في كتّاب راسخين، وبعض هذه الآراء تكتب على صفحات الكتاب أنفسهم، قرأت من يصف رواية مثل "ذكرى غانياتي الحزينات" لغارسيا ماركيز، بأنها رواية تافهة لا تستحق النشر، ولا ينبغي أن تلصق باسم ماركيز، ورواية أخرى لأمين معلوف بأنها أردأ كتاب قرأته.

هذا الكلام عادي ولا مشكلة فيه على الإطلاق، وكان يردد مثله قديما في المقاهي وغيرها، لكنه لا ينتشر، ولا يعرفه الكاتب غالبا كما ذكرت، لكن الشيء غير العادي أن يبدأ القارئ في العمل على نصوص منجزة قرأها، ويذكر أن هذا الكتاب نهايته ساذجة، وينبغي أن تكون النهاية هكذا. أي أنه يقوم بكتابة نهاية من عنده لكتاب ربما لم يفهمه جيدا، ويسعى جاهدا لتوصيلها للكاتب الذي تورط في الاشتغال على الإنترنت.

أن يذكر أن الكاتب كان يسخر من القراء حين كتب روايته هذه، ولا يكون الكاتب وهو يكتب يسخر من ذهنية أحد، ويأتي قراء آخرون يشاركونه الرأي وهم لم يقرؤوا الكتاب أصلا، ويصل ذلك الرأي الغريب للكاتب، فيضطر أن يعود إلى نصه، ليعرف في أي موضع سخر من القارئ، ولا يعثر على شيء.

وقد أرسلت لي مرة قارئة رسالة ملحة وجدتها في أي موقع أرتاده، وعلى بريدين إلكترونيين أملكهما، وكانت تضع لي -بإصرار- نهاية من عندها لإحدى رواياتي التي لن تكون نهايتها إلا كما كتبتها، بناء على ما حدث في النص الذي قضيت شهورا وأنا أحاول إنجازه. كان ذلك تدخلا لم يكن ليحدث في الماضي، وأشبه بالذي يطرق باب بيتك المدهون بالأبيض مثلا ليطلب منك تغييره إلى الأزرق.

التواصل مهم، هذا أمر لا شك فيه، وما لم يكن ثمة تواصل بين الكاتب والحياة، لن تكون ثمة كتابة ذات جدوى، لكني -برغم ذلك- كنت أفضل لو ظلت الحدود بين الكاتب وقرائه كما كانت في السابق، الكاتب في عزلته ينجز ما يستطيع إنجازه، والقارئ في قراءته يختار ما يعجبه ويترك ما لا يعجبه، وتمضي سكة الكتابة بلا تدخل من طرف في رأي طرف آخر.

إلى متى وأمة (اقرأ).. لا تقرأ؟

د. وليد فتيحي

كانت معجزة القرآن أعظم وأسرع وأغرب طفرة حضارية في تاريخ الإنسانية فقد استطاع الخطاب القرآني أن ينتقل بها من إنسان الجاهلية البسيط إلى مركز العالم وسيده في أقل من ثلاثة عقود، وسر هذا الإعجاز ومفتاحه همسة في الغار اختارها الله لتكون أول ما يوحى وأول ما يفرض.. إنها كلمة (اقرأ) شعار الحضارة الجديدة التي تشمل القراءة التقليدية والقراءة الشاملة للقرآن والكون والطبيعة التاريخ والخليقة، وحققت المعجزة على الواقع بتطبيق شعار حضارة عنوانها (اقرأ) واندثرت الحضارة بمخالفته، وضاع تطبيق أول أمر وفرض وكلمة سر (اقرأ) لتصبح أمة اقرأ أمة لا تقرأ.

في تقرير التنمية الثقافية الذي تصدره مؤسسة الفكر العربي في دورته العاشرة لمؤتمر (فكر) المنعقد في دبي، بينت أن متوسط قراءة الفرد الأوروبي يبلغ حوالي 200 ساعة سنوياً، بينما الفرد العربي يبلغ حوالي ما لا يتعدى ست دقائق سنوياً وهو في تناقص، وهذه نسبة مخيفة بل وكارثية. وفي إحصائيات منظمة اليونيسكو بينت أيضاً أن متوسط القراءة الحرة للطفل العربي لا يتجاوز كذلك الدقائق في السنة مقابل 12.000 دقيقة للطفل في العالم الغربي.

وفي دراسة دولية أخيرة حول معدلات القراءة في العالم أوضحت أن معدل قراءة المواطن العربي سنوياً ربع صفحة، بينما الأمريكي 11 كتاباً، والبريطاني والألماني سبعة كتب، بمعنى أن كل 20 مواطنا عربيا يقرأون ما يعادل كتاباً واحداً في السنة، في حين يقرأ البريطاني أو الألماني 7 كتب أي ما يعادل 140 عربياً، ويقرأ كل أمريكي 11 كتاباً في السنة، أي ما يعادل ما يقرؤه 220 عربياً في السنة.

وفي دراسات وإحصائيات أخرى وجد أن أقل من 5% من المواطنين العرب يقرؤون بانتظام، فمن 365 مليون مواطن عربي (30% أطفال، 30% أميون، 20% لا يقرؤون قط، 15% بشكل متقطع وليسوا حريصين على اقتناء الكتب، فقط 5% هم المواطنون المواظبون على القراءة).

ويصدر العالم العربي نحو 2000 كتاب سنوياً، في حين تصدر أمريكا وحدها أكثر من 85.000 كتاب سنوياً، والكتاب الذي يباع منه بضعة آلاف في العالم العربي يعتبر إنجازاً كبيراً، في حين تصل مبيعات الكتب الغربية إلى الملايين. أما الترجمة فحدث ولا حرج، فنصيب كل مليون مواطن عربي من الكتب المترجمة 404 كتب، في حين أن نصيب كل مليون إسرائيلي على الرغم من حجم إسرائيل 308 كتب، المجر 500 كتاب، وأسبانيا 950 كتاباً.

في تقرير التنمية في العالم العربي، أوضح أن عدد الكتب المترجمة في العالم العربي مجتمعة يعادل خمس ما تترجمه دولة صغيرة مثل اليونان (عدد سكانها أقل من 20 مليون نسمة)، ولذلك تجد أن دور النشر العربي مجتمعة تستهلك من الورق ما تستهلكه دار نشر فرنسية واحدة (مثل باليمار). وهناك كتاب يصدر لكل 12.000 مواطن عربي، بينما يصدر كتاب لكل 500 مواطن إنجليزي، أي أن معدل القراءة في العالم العربي لا يتجاوز 4% من معدل القراءة في انجلترا.

أما الكتب الإلكترونية فالواقع أشد ألماً، فتصل مبيعات بعض الكتب في الغرب إلى أكثر من أربعين ألف نسخة في أقل من يوم واحد وتصل المبيعات للملايين، أما في العالم العربي فلا تكاد المبيعات تذكر، وبالرغم من تعدد مصادر التسلية للأطفال في الغرب إلا أن إقبال الطفل الغربي على الكتاب ما زال في ازدياد، فزادت نسبة مبيعات الكتب الموجهة للأطفال بنسبة 8% خلال عامي 2007م و 2008م.

والمصيبة الكبرى في العالم العربي أن الأمية ما زالت منتشرة، في حين أنها اختفت تماماً في اليابان منذ القرن التاسع عشر، فإن تقرير منظمة اليونيسيف يبين أن 70 مليون عربي ما زالوا أميين وثلثاهم من الأطفال والنساء.

ما الذي حدث لنا؟ فلنبدأ من السنوات الأولى لحياة الطفل العربي، لأنها ستحدد علاقته بالكتاب مدى الحياة، فقد بين تقرير مؤتمر "تطور الدماغ" في جامعة شيكاجو أن دماغ الطفل الرضيع لا يحدد ولا يقرر كيفية تطوره وراثياً أو جنينياً، وإنما من خلال التجارب المبكرة التي يكون لها الأثر الحاسم والفاصل في هذا التكوين.

تبين تقنية تصوير الدماغ الحديثة أنه وحرفياً في خلال ثوان فقط من بداية قراءة كتاب لطفلك الصغير تندفع آلاف من خلايا الدماغ للعمل، فبعض هذه الخلايا تنشط وتقوى وأخرى جديدة تتكون لتغير من شكل الدماغ مدى الحياة. كل هذا فقط عندما تفتح كتاباً لطفلك لتقرأ، وهذه هي الفترة الخطيرة الحرجة الحاسمة الهامة في تغيير الدماغ وتؤثر في حياة الإنسان مدى الحياة بناء على (National Scientific Counsel on the Developing Child 2010). أي أن جودة الشبكة العصبية التي تربط بين أجزاء الدماغ تتكون في هذه الفترة لتصبح دعائم القدرة المستقبلية على التعلم، وكذلك فهي توجه السلوك ومدى الصحة النفسية للإنسان مدى الحياة.

وقد بينت الدراسات الحديثة أن الطفل يكون 80% من قيمه وسلوكه وولائه وما يخافه ويخشاه في السنوات السبع الأولى من حياته لتبقى معه طوال ما تبقى من عمره، وبينت كذلك أن القراءة للمتعة تجعل الطفل أكثر فصاحة ووضوحاً ولديه قدرة أعلى على الفهم والتفكير المنطقي.

كما أن القراءة للطفل في مرحلة الطفولة وما قبل المدرسة تبني علاقة وطيدة بين الطفل ووالديه وتبني الثقة عند الطفل وتبني الإحساس بالتعاطف والقدرة على التحليل والتركيز، كما تصبح القراءة عند الطفل شيئاً محبباً وليس مفروضاً، وتكون محببة أكثر من الألعاب الإلكترونية وأفلام الفيديو.

كذلك بينت دراسات أن الأطفال الذين حُثوا على القراءة وقُرئ لهم في فترة ما قبل الدراسة حققوا تفوقاً أكاديمياً على نظرائهم استمر حتى المرحلة الجامعية، وهو كذلك يربي الحماسة والشغف ويقوي الذاكرة وحسن الإنصات عند الطفل.

كلنا نسعى لتربية أبنائنا ليصبحوا أذكياء ناجحين ونختار لهم أحسن المدارس والأساتذة، ولكننا قد نغفل أن أهم عامل لتحقيق ما نريد هو أن نجعل الكتاب والقراءة جزءاً لا يتجزأ من كيانهم وأسلوب حياتهم. وأسباب التخلف في القراءة عديدة منها ما ذكرناه أعلاه من عدم جعل القراءة جزءاً من حياة وكيان الطفل، وكذلك انعدام القدوة في الأسرة والبيت والوالدين، إضافة إلى التعليم التقليدي الذي يركز على المنهج والحفظ والإجابات الصحيحة وفق نماذج صارمة، لا على الثقافة بمفهومها العام والقدرة على التفكير وطرح الأسئلة الوجيهة.

ويضاف لكل ذلك المجتمع بشكل عام الذي يعيش في عالم الأشياء لا عالم الأفكار ليصبح الفكر أرخص شيء ولا تقيم إلا الأشياء التي ترى بالعين. ومسؤولية مؤسساتنا عن غياب المكتبات العامة التي نراها في الغرب في كل حي، حيث غدت المكتبة هناك محور التواصل والمعرفة، مع تشجيع شراء الكتب بأسعار زهيدة وإقامة مسابقات تشجيع القراءة وتواصل المدارس مع مكتبات الحي، ووضع معونات مالية لكل طالب مخصصة لشراء الكتب، مثال على ذلك فرنسا فإنها تعطي لكل طالب ما يعادل شراء 20 كتاباً سنوياً في شكل كوبونات.

كل من يذهب للغرب يرى كيف تكون مكتباتهم مركزاً للفكر لطالبي العلم والثقافة يتهافتون عليها من كل الأعمار لتصبح كخلية نحل بأنشطتها الاجتماعية وأنديتها الثقافية ونظامها الذي يسمح باستعارة الكتب لأسابيع دون شروط.

إذا أردنا حقاً أن ننهض من جديد فليس من سبيل إلا أن نعود لأول كلمة نزل بها الوحي، همسة الغار وفاتحة الوحي وسر قدرة القرآن على إخراج المعجزة من الإنسان، الكلمة التي بنت أعظم حضارة شعارها كان كلمة استحقت أن تكون أولى كلمات السماء للأرض في أول لقاء بين جبريل وسيد الخلق عليه الصلاة والسلام.. إنها كلمة اقرأ، فإن لم نطع أول أمر ولم نطبق أول فرض نزل به القرآن فهل لنهضة هذه الأمة من أمل؟

لمشاهدة الفيديو (ومحياي - إقرأ) إضغط هنا

أو (محياي - إقرأ) إضغط هنا